

المُستشرقون

د. بعض قضايا التاريخ العربي الإسلامي

د. نبیه عاقل

وكيل جامعة دمشق للشؤون العلمية

المستشرقون ، كما هو معروف ، هم الفئة من الباحثين والمؤلفين الاوربيين الذين تناولوا بعض قضايا التاريخ واللغة والادب العربي والدين الاسلامي بالدراسة والبحث وابداء الرأي ، كما ان بعضهم ساهم مساهمة طيبة في نشر كتب التراث وطباعتها بعد تحقيقها ، تحقيقا كان بعضه امينا ودقيقا ، وبعضه الاخر جانبته الدقة والامانة . وطبيعي انا نعتبر المستشرقين فئة واحدة من فئات اخرى غير مسلمة بحثت في التاريخ العربي الاسلامي وطرقت العديد من ابوابه منذ قرون طويلة ، ولكن هذه الفئات الاخرى لم تشكل تيارا متصلا وحركة لها سماتها المميزة ، كما هو الحال مع حركة الاستشراق التي ستكون موضع اهتمامنا في هذه الدراسة .

وقبل الدخول في هذا الحديث الذي اردناه عن المستشرقين وبعض قضايا التاريخ العربي الاسلامي ، وحتى نضع حركة الاستشراق في موضعها الصحيح من حركة الكتابة التاريخية عموما ، وضمن المسار العام لهذه الحركة ، لا بد لنا من التذكير بان موضوع نظرة المؤرخين غير المسلمين الى الاسلام والحضارة الاسلامية يشمل كتابات هؤلاء المؤرخين في القديم والحديث عن الاسلام وحضارته . وضمن فئة المؤرخين غير المسلمين الذين كتبوا في القديم عن الاسلام يمكننا ان نميز نوعين من المؤرخين : مؤرخون غير مسلمين عاشوا وكتبوا على ارض الاسلام وفي ظل دولته ، ومؤرخون اجانب لم يعيشوا على ارض الاسلام ولكنهم كتبوا عنه ، اما لاهتمامهم بالتاريخ العام او لبحث العلاقات التي قامت بين دولهم والدولة العربية الاسلامية المعاصرة لهم .

وللتعريف بما قصدنا بأفراد الفئة الاولى يمكننا ان نذكر اسما واحدا من بين كثرة لا يتسع المجال لتعدادها ، هو اسم أبي الفرج غريغوريوس بن اهرودن المطي ، الذي ينسب الى (ملاطية) في الاناضول ، وهو من رجال الكنيسة اليعقوبية

المشهورين . كان أبوه طبيبا يهوديا ، أما هو فقد تنصر ولقب بابن العبري Ban Hebraeus وعرف بهذا اللقب بين العرب . وقد عاش ابن العبري في القرن السابع الهجري (٦٢٤ - ٦٨٥ هـ) ، وبدأ حياته بدراسة الطب كأبيه ، ولكنه ما لبث أن انصرف لدراسة العلوم العقلية في الكتب العربية . واستقر مع أبيه في مدينة انطاكية ، حيث تنصر واعتنق الرهبنة وتقلب في مناصب كنسية عديدة حتى وافته المنية في مدينة مراغة في اقليم اذربيجان . وقد ألف ابن العبري كتبا كثيرة في علوم شتى كاللاهوت والفلسفة وقواعد اللغة السريانية . كما ألف كتابا في التاريخ هو « مختصر تاريخ الدول » ، الذي كتبه باللغة السريانية ، ويحث في جزئه الاول التاريخ العام السياسي للعالم منذ الخليقة حتى أيامه . وقد استقى ابن العبري معلوماته عن تاريخ العرب والاسلام من مصادر عربية وفارسية ، أما معلوماته عن فترة حكم التتر للبلاد الاسلامية فقد أخذها عن مؤلف فارسي . وأعد ابن العبري ترجمة عربية لذلك الجزء من تاريخه العام ، مضافا الى الترجمة العربية زيادات اقتبسها من الكتاب المقدس لم يذكرها في النسخة السريانية لافتراضه أنها معروفة في التاريخ السرياني . ومعلوم أن ابن العبري عاش في عهد الغارات الصليبية والمغولية واتصل بزعيم المغول (هولاكو) الذي عينه رئيسا لاساقفة السريان اليعاقبة في الولايات الشرقية . فعمل على نشر المذهب اليعقوبي ، وساهم في تأسيس العديد من الكنائس ، كما يذكر في كتاب له عنوانه « تاريخ الكنائس السريانية » . ويعتمد ابن العبري في كتابه « مختصر تاريخ الدول » على النقل والتلخيص المشوه عمعن سبقه من مؤرخين عرب وغير عرب . وليس لكتابه قيمة تاريخية حقيقية ، وفيه دس متعمد من بينه فريته المشهورة بأن عمر بن الخطاب أمر بحرق مكتبة الاسكندرية . وسنعود للحديث عن ابن العبري هذا في فقرة لاحقة . وليس ابن العبري مثالا فريدا على هذه الفئة من المؤرخين ، فهناك العديد من أضرابه الذين كتبوا عن الاسلام في ظل دولته وكرعايا له وهم من غير المؤمنين به .

أما الفئة الثانية ، فئة المؤرخين الاجانب الذين كتبوا عن الاسلام من على ارض غير اسلامية ، فهي أيضا تضم اسماء كثيرة ، ولعل هيرودوت الذي لقب بأبي التاريخ كان أول من كتب عن امم ودول غير أمته ودولته ، وكان للعرب من كتاباته نصيب ، كما هو معلوم . ومن أشهر المؤلفين البيزنطيين الذين تناولوا العرب في تواريخهم هو المؤرخ ثيوفانس الذي عاش بين سنتي ٧٥٨ - ٨١٨ م ، وعمل في السلك الكهنوتي واهتم بالاخبار منذ شبابه . وتعتبر حوليته التي دونها بين سنتي ٨١٠ - ٨١٨ م من أشهر حوليات المؤرخين البيزنطيين وتغطي الفترة الواقعة بين ٢٨٤ - ٨١٣ م . ورغم ما يأخذه البعض على حولية ثيوفانس هذه من افتقار

الى الدقة العلمية وبعد النظر وحياد المؤرخ النزيه ، فانها ذات قيمة كبيرة ولا سيما بالنسبة لاجبار القرنين السابع والثامن الميلاديين لان مؤلفها اعتمد على مصادر قديمة ، فقدت ولم يصلنا منها الا ما نقله عنها هو . وأهم ما يميز حولية ثيوفانس النظام الزمني الدقيق ، فالاجبار عنده مرتبة حسب السنين ، وحين يتحدث عن امبراطور من اباطرة بيزنطة يتناول بالبحث من كان يعاصره من حكام دولة الاسلام وفارس من قبلها . وعنه نستطيع استقاء اخبار مهمة تتعلق بالعصر الاموي خاصة ، لما كان بين بلاد الشام وبيزنطة من صلات (١) . وهذه الاخبار يعتبرها بعض المؤرخين المحدثين اقرب الى وجهة نظر أهل الشام من أحداث هذه الفترة ، لان ما جاء في المصادر العربية عن خلافة بني امية كتب زمن العباسيين الذين كانوا لا يكونون ودا كبيرا للبيت الاموي . في حين أن ثيوفانس استقى معلوماته ، على أغلب الظن ، من مصادر أو روايات شامية باعتبار أنه كان يعيش على أرض بيزنطة التي لا تبعد عن بلاد الشام كثيرا ، وليس غريبا أن يكون تأثره بهم أكبر من تأثره بأهل العراق والخلافة العباسية . واذا اضفنا الى ذلك الفترة الزمنية التي عاش خلالها هذا المؤرخ وألف منها حوليته لوجدنا ما يبرر اعتقادنا هذا . وكما كان ابن العبري مثلا واحدا على أفراد الفئة الاولى من المؤرخين غير المسلمين الذين كتبوا عن تاريخ العرب والاسلام ، كذلك ثيوفانس ، ليس الا مثلا واحدا على أفراد الفئة الثانية . وذكرنا لاسمه وحده لا يعني انه الوحيد بين المؤرخين الاجانب الذين كتبوا عن دولة الاسلام فهناك العديد من أضرابه ممن سبقوه أو جاؤوا بعده ، بيزنطيين وغير بيزنطيين . فهل يعقل مثلا أن تمر العلاقات البيزنطية الفارسية غير ملحوظة في كتابات من كتبوا قبل ثيوفانس ، كما أنه هل يمكن أن يمر موضوع العلاقات العربية البيزنطية دون أن يحظى باهتمام من تلو ثيوفانس من مؤرخين بيزنطيين . واذا صح هذا على المؤرخين البيزنطيين فانه يصح بنفس القدر على المؤرخين الفرنجة الذين كانت تربط دولتهم روابط من حرب وسلم وسفارات لا تكاد تنقطع يوما مع دولة الاسلام في المشرق والمغرب ، في دمشق وبغداد والاندلس على حد سواء . وحين نصل الى الحروب الصليبية ، هذا الحادث الذي كان بالغ الاهمية في حياة الغرب المسيحي ، والذي فتح امام الجماهير الاوربية عوالم جديدة تختلف عن عالمهم اختلافا جذريا في أكثر مناحي الحياة ، فانا نقف امام أكداس من الكتابات التاريخية لمؤرخين غير مسلمين كتبوا عن أحداث وثيقة الصلة بالتاريخ العربي الاسلامي . وذلك لان الحملات الصليبية لم تكن صداما عسكريا بين الغرب والشرق لتحقيق اهداف دينية وسياسية واقتصادية لصالح الغرب فحسب ، بل كانت مخاضا حضاريا وثقافيا أخذت بعده اوروبا سمنا جديدا في مسيرتها التاريخية وانطلقت لتخط الصفحة الهامة في سفر حضارتها الحديثة التي تدين بالشيء

الكثير لما نقلته عن الشرق العربي المسلم حين احتكت به ابان الحروب الصليبية وبعدها . وقد ظهرت آثار دهشة اوروبية من الرقي والتقدم الذي اكان يحياه مشرقنا العربي المسلم في تلك الفترة ، في العدد الضخم من الرسائل والتقارير التي ارسلها الصليبيون الاول الى اهلهم وذويهم وحكوماتهم في الغرب . ويبدو أن الرسائل والتقارير لم تشبع نهم الغرب الى معرفة المزيد عن حضارة الشرق وتاريخه ، فأخذ الكثيرون منذ الايام الاولى للحملات الصليبية ، بتدوين الكتب التي تبحث في تاريخ وجغرافية وحضارة المشرق آنذاك . ولعل كتابات ريمون ايفيل Raymond d'Aiguilhe وفوشيه شارتر Foucher de Chartres او فولبر Fulbert وايكهارد اورا Ekkehard of Aura وغيرهم من مؤرخي الحروب الصليبية خير شاهد على اهتمام مؤرخين غربيين بتاريخ العرب والاسلام في هذه الفترة وعلى الاسلوب والمنهج الذي اتبعوه في معالجة أحداث هذا التاريخ ونظرتهم الى معطيات الحضارة العربية الاسلامية . وأود في هذه المجالة أن أقف وقفة قصيرة عند كتابات واحد من مشاهير مؤرخي الحروب الصليبية ، ألا وهو وليام الصوري William of Tyre الذي يحتل مكانة فريدة بين مؤرخي هذه الحروب ، لان كتاباته تعتبر أول تاريخ شامل لها . ولد وليام هذا حوالي سنة ١١٣٠ م في بيت المقدس ، طهر الله ثراها من رجس الصهاينة الطفافة ، من أبوين نزحاً من الغرب الى القدس حيث استقرا وولد لهما أولاد من بينهم وليام . ورغم صعوبة امكان الادلاء برأي قاطع حوله أصله ، فقد يكون من أصل ايطالي . وكان يعرف الى جانب اللاتينية الفرنسية واليونانية والعربية والعبرية والفارسية . وليس يهمننا أن ندخل في تفاصيل حياة هذا المؤرخ ، يكفي أن نذكر انه في حوالي العام ١١٦٣ م أضحى قساً ومن أعضاء الكاتدرائية المسؤولين في مدينة صور . وقد عينه أموري الأول ملك القدس (حكم بين سنتي ١١٦٣ - ١١٧٤ م) رئيساً للشمامسة ومؤرخاً خاصاً له . ويجمع المؤرخون على أن أموري هو الذي اقترح على وليام الصوري كتابة تاريخ شامل لمملكة بيت المقدس منذ قيامها . وقرر وليام أن تكون نقطة البداية في تاريخه مجمع كليرمون الذي عقد سنة ١٠٩٥ م ، أو سنة ١٠٩٤ ، وهي السنة التي يقال ان بطرس الناسك حج فيها الى بيت المقدس . وسار وليام قدماً في تحقيق مشروعه وأخذ يجمع كل ما وقع اليه من مصادر مكتوبة أو روايات شفوية وأخذت فصول كتابه تظهر تباعاً . وزار أموري في هذه الاثناء مصر وشاهد مظاهر الحضارة الاسلامية الرائعة فيها ، فشعر أنه بحاجة الى اكتاب في التاريخ يشرح له ماضي العالم العربي الاسلامي . لذا زود وليام الصوري بالمصادر العربية التي كان قد استلها من مكتبة اسامة بن منقذ ، وطلب اليه ان يكتب له تاريخاً عن أمراء الشرق . وهكذا غدت مهمة وليام مزدوجة وأوكل اليه أموري اكتابة تاريخين

احدهما : « تاريخ مملكة بيت المقدس » Gesta Regnum ، وثانيهما : « تاريخ امراء المشرق » Gesta orientalium principum . وتشاء الاقدار ان يتوفى اموري في هذه الفترة وأن يقع الاختيار على ريمون الثالث أمير طرابلس ليغدو وصيا على العرش وذلك سنة ١١٧٤ م . وفي سنة ١١٧٥ عين ريمون الثالث وليام الصوري رئيسا لاساقفة صور وسلمه منصب مستشار المملكة ، فغدا يجمع في شخصه منصبين رفيعين احدهما سياسي والاخر ديني . رقد شغلته السياسة والمناصب الكنسية الرفيعة ردحا من الزمن ، عاد بعده لانجاز كتابيه في التاريخ . واستطاع وليام أن ينجز كتابه « تاريخ امراء المشرق » Gesta orientalium principum الذي كتبه بناء على طلب اموري ، كما ذكرنا آنفا ، ولكن ، وللأسف الشديد ، ضاع هذا الكتاب ولم يصلنا منه الا نتف واشارات نقلها عنه مؤرخون اخرون : على أننا نستطيع القول من خلال معرفتنا بكتابه Historia rerum in Partibus Transmarinis Gestarum وهو الذي ترجمه بابكوك Babcock الى الانكليزية بعنوان A History of Deeds Done beyond the Sea « تاريخ الاعمال التي انجزت وراء البحر » (طبع جامعة كولومبيا سنة ١٩٤٣ في جزئين) ، أنه أفاد من المصادر العربية التي قدمها له اموري . ويقول الدكتور السيد الباز العريني عن وليام هذا ما يلي : « ويبدو من الفقرات التي أوردها وليام عن التاريخ الاسلامي أنه لابد انه استمد معلوماته في هذه الناحية من روايات شفوية ، ومن نقوش مدونة على العمائر . على أن ما أورده عن بعض الامور في التاريخ الاسلامي ، تختلف في صورتها عما ورد في المصادر التي اعتمد عليها ، أو انها تتطلب مزيدا من البحث . . . والراجح أن وليام لم يجد عناء في أن يلتبس من علماء العرب أو المصادر العربية ما يحل مشاكله » (٢) . ولكن الواقع أنه لم يفد افادة كاملة من كل المصادر العربية التي وقعت له أو انه اكتفى في أغلب ما كتب بالنقل عن سعيد بن البطريق فقط . وهناك فارق كبير بين المعلومات التي يوردها في تاريخه عن الفترات التي سبقت عصره والمعلومات المتعلقة بعصره . فهو حين يكتب عن عصره يتناول الاحداث باسهاب وتفصيل ، ولا سيما حين يتحدث عن فترة حكم اموري نراه يسهب في وصف احوال مصر والخلفاء الفاطميين وأصلهم وأخبارهم ، كما يولي أمر جغرافية مصر والنيل وبرزخ السويس عناية خاصة ، ويرجع بأبحاثه الى العصور القديمة .

★ ★ ★

بعد هذه الامثلة التي لا ادعي لها الكمال والتي قصدت منها فقط أن أقدم شواهد على بعض مما كتبه مؤرخون غير مسلمين عاشوا في القديم عن الاسلام وحضارته ، أود أن أقول أن هذا الشق من الكتابة التاريخية التي خطتها أيد غير

عربية أو مسلمة عن العروبة والاسلام والحضارة العربية الاسلامية ليس ما أنوي عرضه في بحثي هذا . واني انما اريد أن اسلط بعضا من ضوء على الاستشراق كحركة في التأليف التاريخي وجهت عنايتها الى تاريخنا وتناولت احداثه بالدراسة والبحث وكان لها أهدافها وغاياتها وأساليبها في عرض هذه الاحداث ، كما كان لها مواقف لا تخلو من شبهات من رجالات هذا التاريخ ومنجزاتنا الحضارية . فالمستشرقون مؤرخون أوربيون خصوا العرب والاسلام وسواهما من شعوب الشرق وحضاراتها بكل جهدهم ، وكانت لهم أدوار لها سلبياتها وإيجابياتها ، تستحق وقفة نحاول من خلالها أن نستذكر معا تاريخ هذه الحركة وتطورها وأهدافها ونضرب بعض الأمثلة على مواقف رجالاتها . واني أقر سلفا بأن هذه الدراسة بعيدة كل البعد عن الاحاطة والشمول ، وانها ليست الا محاولة للتذكير باليسير مما هو معروف عن هذا الموضوع .

وإذا أردنا لقصة الاستشراق من بداية فلايد من أن نذكر أن رسالة محمد بن عبد الله (صلعم) لم تقف عند حدود تبليغ الوحي والتبشير بدين الله ، بل اكانت نقطة الانطلاق لامة العرب في مسيرتها الرائعة لبناء دولة وحضارة خلدت خلود الابد وأينعت ثمارا أمدت الإنسانية بما لا يفيه وصف أو تقدير . وطبيعي أن يقلب هذا الدين وما تبعه من انطلاقة العرب الفاتحين في أرجاء المعمورة موازين القوى في عالم القرون الوسطى وأن يغدو التحدي الرهيب للوجود السياسي والعقائدي لدول ذلك العالم من غير العرب . وقف عالم الفرس والروم ومن جاء بعدهم من دول وامبراطوريات وقفة المدهوش الذي أذهله تهاوي عروش وتيجان ، وزحف أمم وشعوب للانضواء تحت لواء دين بشر به رجل لفحته شمس الحجاز بهجيرها ، وبات على الطوى أياما وليالي ، وقيل عنه انه أمي لم يمكس بقلم أو قرطاس وانه ملاذ المستضعفين وموئل الذين لذعت ظهورهم سياط الظلم والعبودية . وكانت خلافة الراشدين من بعده فانساح العرب في الارض فاتحين ، وقامت دولة بني أمية بعدهم لتحمل الرسالة عربية صافية الى الهند والصين والى افريقية واوربة ، وبكلمات قليلة استيقظ المارد العربي ، ليحتوي بيديه القويتين عالم القرون الوسطى وليوحده في دولة كبرى تمازجت بها العروبة بالاسلام وتحققت على يديها حضارة ماتزال مبعث فخارنا نحن عرب اليوم وموضع اعجاب العالم . ولم تكن دولة بني العباس في المشرق ، أو خلافة بني أمية في الاندلس لترضيا بدور أقل من دور سالفتيهما ، فحملتا الامانة وأديتا الرسالة خير ما يكون الاداء . وكانت ردة فعل القوى المضادة عنيفة بقدر ما كان التحدي العربي الاسلامي عنيفا وجبارا ، وإذا كان الاسلام هو الحافز والمحرك لنهضة العرب وانطلاقتهم ، وإذا كان محمد بن عبد الله هو صاحب الرسالة التي أقامت للعرب امبراطوريتهم وحضارتهم ، فقد كان من

الطبيعي ان يكون محمد والاسلام محور الهجوم المضاد وموضع نقمة الذين اربهمم التحدي وأخذ بمقاتلتهم . ان التحدي العربي القادم من صحراء الجزيرة العربية والذي انتقل ليستقر في قلب أوربة ، والذي أخضع شبه الجزيرة الايبيرية لسلطانه وسيادته ، ودق بيديه القويتين أبواب فرانس والمملكة الفرنجية أكثر من مرة ، كان لابد وأن يقرع نواقيس الخطر في أوربة والعالم الغربي جميعا . وان كان لي أن اذكر بشيء ، فليس أجدي من أن نستذكر الحركة المعادية للايقونات Iconoclasm التي قامت في الامبراطورية البيزنطية زمن الامبراطور ليون الثالث (٧١٧ - ٧٤١ م) والتي دامت ما يزيد على القرن من الزمن والتي يعتبرها الكثيرون أهم حصيلة للتحدي الفكري العربي الاسلامي الذي انسرب الى داخل العقيدة المسيحية (٣) . ان معارضة تقديس الايقونات مرتبطة الى حد بعيد بالاتصال الذي تم بين العالم العربي الاسلامي وبيزنطة ، والاثر الذي تركه هذا الاتصال في تغيير نظرة مسيحيي بيزنطة نحو هذه الايقونات . وقد نسب أكثر من مؤرخ موقف الامبراطور ليون الثالث الذي كان أول امبراطور بيزنطي يقود حركة المعارضة لعبادة الايقونات الى تأثره بالافكار الاسلامية . فقد جعلته صلاته بالعالم العربي الاسلامي واحتكاكه الفكري بمن اعتنقوا الاسلام يتأثر بالثقافة والفكر الجديدين وبالتالي ساعدت على وقوفه موقفا عدائيا من قضية تقديس الايقونات والصور . ومن الطريف أن نذكر ان معاصري ليون الثالث كانوا يلقونه بالامبراطور « ذي العقل العربي » . وطبيعي أن العرب الذين هاجموا آسية الصغرى خلال سنوات طويلة واحتلوا اجزاء منها لم يحملوا معهم الى هذه البلاد السيف فحسب ، بل حملوا معهم افكارهم وحضارتهم وكرهم لتمثيل الجسد البشري بصور وتماثيل وما شابه . وهكذا قامت أزمة الايقونات التي اكانت من أهم الامثلة على الحقيقة القائلة بأن التحدي العربي لبيزنطة لم يكن تحديا عسكريا فحسب ، بل كان تحديا فكريا برزت آثاره واضحة في العقيدة المسيحية نفسها حين ثارت الازمة العاصفة حول استعمال الايقونات في الكنيسة ، وقدسية هذه الايقونات . ويؤكد المؤرخ البيزنطي ثيوفانس Theophanes هذه الحقيقة ويذكر أن أول قرار حفظه لنا التاريخ ضد عبادة الايقونات لم يصدر في القسطنطينية ، بل في دمشق حاضرة الخلافة الاسلامية . ففي سنة ٧٢٣ م ، على حد زعم هذا المؤرخ ، أصدر الخليفة الاموي يزيد بن عبد الملك أمرا يقضي برفع الايقونات من جميع الكنائس الموجودة في أراضي امبراطوريته . وفي نفس الوقت كان في بيزنطة حزب قوي يعادي الايقونات مركزه الرئيس في آسية الصغرى ، كانت فريجيا Phrygia من مدن آسية الصغرى أقوى مراكز معاداة الايقونات . وكان على رأس الحزب المعادي للايقونات أشخاص كنسيون من ذوي المراكز العالية من امثال توماس رئيس اساقفة كلوديوبوليس Claudiopolis ، وقسطنطين اسقف ناكوليا Nacolea وغيرهما من الالباء الكنسيين .

واذا تركنا قضية عبادة الايقونات والحركة المعارضة لها كمظهر من مظاهر التحدي العربي الاسلامي للغرب آنذاك ، وانتقلنا الى حركة الاستخفاف التي قامت في الاندلس لوجدنا في هذه الحركة مظهرا اخر من مظاهر الخطر الذي كان يمثله العرب المسلمون في مجالات العقيدة والفكر والحضارة بالنسبة للغرب في القرون الوسطى . فقد حاول بعض دارسي هذه الحركة أن يظهروها بمظهر رد الفعل الذي اكان لابد منه ازاء الاضطهاد الديني الذي لاقاه المستعربون (سكان الاندلس المحليين الذين لم يعتنقوا الاسلام) من العرب المسلمين . كما حاول آخرون أن يجدوا في النظام الضريبي الذي كان يخضع له المستعربون سببا لهذه الحركة . ولعل أبسط ما يرد به على الادعاء الاول القائل بأن سبب حركة الاستخفاف هو الاضطهاد الديني ، هو أن ما لدينا من وثائق ومعلومات لا يرقى اليها شك تثبت أن المستعربين كانوا يتمتعون في ظل الدولة العربية في الاندلس باستقلال ذاتي ، اذ كانوا من الناحية الادارية يخضعون لرئيس عام لهم تعينه الحكومة المركزية يدعى « قمص » Comes وهو منهم ، وله وكلاء في المناطق الاخرى يطلق على الواحد منهم اسم المستخرج . وأما من الناحية القضائية فقد كان لهم قاض خاص يدعى بقاضي النصارى أو قاضي العجم يحل ما يقوم بينهم من نزاعات حسب شريعتهم الخاصة ، ولا يخضعون لحكم قاض مسلم أو لاحكام الشريعة الاسلامية الا عندما يقوم نزاع بينهم وبين المسلمين . ولعل المنشور التالي الذي أصدره الوالي العربي لمدينة قلمرية Coimbra خير دليل على ما نقول . فقد جاء في هذا المنشور ما يلي : « يكون على مسيحي قلمرية قمص يلي امورهم ويحكم فيهم بالسداد وكما كانت عادة المسيحيين في الاحكام وله أن يفصل في الخصومات التي تقع بينهم ، ولكنه لا يقدر أن يحكم على أحد بالقتل الا بعد موافقة قاضي المسلمين . . ويكون لكل مدينة من المدن الصغيرة قاض خاص بها يحكم فيها بالعدل ويكف المنازعات . وان أهان مسيحي مسلما عومل بشرع المسلمين » (٤) .

أما عن الادعاء الثاني الذي يجعل النظام الضريبي الذي كان يخضع له المستعربون سببا لقيام حركة الاستخفاف ، فيمكن القول أيضا أن هذا السبب لا يستقيم على محك النقد ، ولعل أبسط ما يرد به عليه هو أن زعماء هذه الحركة وقادتها الكبار كانوا من رجال الدين وهم معفون من دفع الضرائب ، كما أن غالبية المشاركين فيها كانوا من الرهبان ورجال الاديرة أي أبعدهم عن الاهتمامات الدنيوية . ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الضرائب مفروضة منذ أوائل عصر الامارة في الاندلس ، فلماذا لم تقم الحركة الا اعتبارا من عام ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ - ٥٠ م في عهد عبد الرحمن الثاني . ثم ان الضرائب كانت واحدة على عامة المستعربين في جميع أنحاء الاندلس فلماذا تركزت الحركة في قرطبة بالذات ؟؟

ان السبب الحقيقي لقيام حركة الاستخفاف يكمن في رأينا في الانهيار الذي اصاب الحضارة اللاتينية في شبه الجزيرة الايبيرية ، هذا الانهيار الذي تجلى في جميع النواحي : الفكرية والاجتماعية ، واللغوية والدينية ، وانهزام هذه الحضارة وذوبانها التدريجي في الثقافة العربية الاسلامية في الاندلس وانصراف الناس عنها الى الحضارة والثقافة واللغة العربية . والامثلة على هذا الانهيار كثيرة وتحفل بها المصادر والمؤلفات الاسبانية الحديثة . فهذا R. Menendez Pidal ينقل لنا في كتابه El Idioma Espanol (ص 32) قول أحد زعماء حركة الاستخفاف : « لا نكاد نجد في جماعة المسيحيين كافة رجلا من ألف رجل يستطيع ان يستفسر عن صحة صديق بعبارة واضحة جلية ، وانت واحد بين جمهرة السوق والعامّة أشخاصا لا يحصى عددهم ، يحيطون احاطة تامة بالعبارة الفصيحة التي خلفتها اللغة العربية في عصورها الذهبية ، حتى لقد استطاعوا ان ينظموا القصائد المقفاة . . بل لقد كان بعضهم امهر من العرب انفسهم في قرض الشعر » . واذا انتقلنا الى الناحية الدينية فانا نرى ان الاسلام لا يكتفي بضم اعداد متزايدة من غير المسلمين الى حظيرته يوما بعد يوم ، وانما غدا الفكر الاسلامي يشكل خطرا على سلامة العقيدة الدينية عند من بقوا على دينهم ، وفي صفوف رجال الدين بالذات . فقد ظهرت هرطقات جديدة داخل الكنيسة متأثرة بنظرة الاسلام الى الله . وقد رفض مستعربو اشبيلية الاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح على الشكل الذي اوصى به مجمع « نيقية Nicea » ، وعد اسقفها من الهرطقة . وقام Elipando اسقف طليطلة يقول ان المسيح مادام انسانا فلا يمكن أن يكون بابن طبيعي لله ، وانما هو ابن متبنى . وانهى رجل الدين المسيحي في شبه الجزيرة الايبيرية عامة ، وبتأثير اسلامي ، في نقاش حاد حول حرية الارادة والقدر وغير ذلك من أمور .

ان هذه الحركة التي كانت تهدف الى اظهار الاسلام بمظهر السخف وتصوير الرسول الكريم على شكل ساحر أو دعي ، والتي كانت تباهي بشتم الرسول والدين الاسلامي الى حد الشطط والفجور ، ما هي الا مظهر من مظاهر الشعور بالخطر الكبير الذي كان يمثله الاسلام ورسوله العظيم بالنسبة لمن كانوا يناصرون الاسلام العداء . وتمثل هي وحركة معاداة الايقونات التي اسلفنا ذكرها الحد الذي وصل اليه الخوف من الدين الجديد وما حمله من أفكار ، وضرورة العمل لانقاذ انتشاره وكسر شوكرته ومهاجمته في صلب عقيدته وتراثه ومعطيات حضارته ، ومن هنا كانت بداية الاستشراق .

ولست أريد لهذه الدراسة أن تدخل في متاهة تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، فهذه العلاقات قديمة ومتشابكة وكان لها أكثر من وجه خلال عصور

التاريخ القديم . ولما جاء الاسلام ، وغدا العرب سادة الشرق وبناء مجده ، شعر
 الغربيون بخطر عقائدي وفكري الى جانب الخطر العسكري والسياسي يتهدد
 وجودهم وأسس حضارتهم ، ولم يعترف الغربيون ، اكما يقول الدكتور كامل
 عياد (٥) « بأن الاسلام انما اراد اتمام ما بدأت الديانات السماوية السابقة ، ونسوا
 أن المسيحية نفسها كانت قد جاءت اليهم من الشرق ، فاعتبروا الدين الجديد مظهرا
 للثورة الكبرى تقوم بها آسيا ضد سيطرة اليونان والرومان ، وصاروا منذ ذلك
 الوقت يصورون الاختلاف بين الشرق والغرب كصراع بين الاسلام والمسيحية » .
 وغدا عندهم حصار العرب للقسطنطينية زمن معاوية والوليد وسليمان بن عبد الملك
 وحملات عبد الرحمن الغافقي وعملياته العسكرية الناجحة داخل حدود فرانسة ،
 تحديات بربرية قوبلت من الغرب بردود قاطعة لانقاذ الحضارة الغربية . كذلك كانت
 الحملات الصليبية التي قادها رجال من الغرب تحت ستار العقيدة الدينية ، ولكنها
 كانت في الحقيقة وسيلة لتحقيق مطامع استعمارية واقتصادية . واذا كان للحملات
 الصليبية من نتائج في ميدان الفكر والثقافة ، فقد كان من أهم هذه النتائج شعور
 رجالات الغرب الصليبي الذين قدموا الى المشرق العربي بأن حضارة الشرق تفوق
 حضارة الغرب ، وامتزج خوفهم من هذه الحضارة وبغضهم لها ، بشيء كثير من
 اعجاب بها ورغبة في الاقتباس منها . كما لاحظ رجال الكنيسة الغربيون الذين
 رأفخوا هذه الحملات الصليبية أو اطلعوا على نتائجها أن معرفتهم بالعقيدة الاسلامية
 معرفة سطحية وغير واضحة ، وأنه لا بد لهم من ترجمة القرآن والاحاديث النبوية
 ودراسات الفقهاء والعلماء المسلمين ليستطيعوا الرد عليها ومحاربتها ومنعها من
 الانتشار بين صفوف اتباعهم وبالتالي تهديد ايمان اتباعهم . ولعل خير دليل على
 صحة دعوانا هذه ان الجمع الديني الذي عقد في فيينا عام ١٣١١ - ١٣١٢ م حث
 رجال اللاهوت المسيحي على الرد على آراء الفقهاء المسلمين . واذا كانت الحملات
 الصليبية على المشرق هي من أهم حوافز نشأة الاستشراق ، فانه كانت هنالك
 مراكز أخرى من الغرب لعبت دورا هاما في تنشيط الدراسات الاستشرافية لانها
 كانت الجسور التي عبرت عليها الثقافة العربية الاسلامية الى الغرب المسيحي ،
 وأهم هذه المراكز : الاندلس وصقلية . فقد كانت طليطلة ، كما هو معلوم ، من
 أكبر حواضر العلم عند العرب المسلمين في الاندلس ، ولما سقطت في يد الاسبان
 عام ١٠٨٥ سارع اليها طلاب العلم من جميع انحاء اوربا ، وقام رئيس اساقفتها
 ريموند (١١٣٠ - ١١٥٠) فأسس فيها مدرسة للترجمة عملت على نقل تراث
 العرب في العلوم من العربية الى اللاتينية وكانت المنهل الذي عب منه جمع غفير ممن
 تبوأوا المراكز العلمية العالية في الغرب في القرون التالية . ولن ننس في هذه العجالة
 أن نذكر الدور الذي لعبه الملوك النورمانديون في صقلية منذ زمن الملك روجر في

جمع العلماء العرب المسلمين في بلاطاتهم وترجمة المؤلفات العربية في مختلف العلوم والفنون لتدريسها في الجامعات التي احتدوا في تأسيسها النمط المتبع في المدارس العربية . .

وهكذا ، بدأت الدراسات الشرقية « على أساس غير صحيح ، لأنها كانت منذ بادىء الامر خاضعة لفكرة الجدل الديني » (٦) .

وحين داهم الاتراك عالم الغرب بعد قيام السلطنة العثمانية وقاموا بالاطاحة بالامبراطورية البيزنطية واحتلال القسطنطينية ، كان طبيعيا أن يرافق الخوف من الاتراك حقد على الدين الذي رفع الاتراك الى منزلة رفيعة وأمدهم بقوة خارقة مكنتهم من تحقيق منجزات سياسية وعسكرية رائعة ، فقام الكتاب الاوربيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر يسمون الرسول الكريم بنبي الاتراك ، وأخذوا في مهاجمة صاحب الرسالة ظنا منهم أنهم بذلك انما يتهمون على الاتراك الذين أوقعوا بهم الذل . ثم كانت بعد ذلك المحاولات المختلفة التي قام بها الغرب لاستعمار أجزاء الوطن العربي الامر الذي زاد في اهتمام الغرب بالشرق ، وغدت مبررات هذا الاهتمام سياسية واقتصادية الى جانب المبررات العقائدية . ونستطيع القول بكل تأكيد أنه خلال جميع مراحل العمليات الاستعمارية ، لعب المستشرقون دورا أساسيا في التمهيد للتوسع الاستعماري ولتوطيد سيطرة الغرب على الشرق .

وكما كان الفاتيكان أكبر المراكز الدينية ، وأكثرها اهتماما بالاستشراق ونشره ، فقد كان هذا المركز المعين الذي أمد طلائع الاستشراق بأوائل رجالاته . فقد كان رجال الدين يؤلفون الطبقة الأكثر تنورا في أوربة ، وكانت مهمتهم الدينية تقتضي عدة أمور منها ارساء نهضة الكنيسة على أساس من التراث الانساني الذي تمثل الثقافة العربية الاسلامية جزءا أساسيا منه ، كما كان من واجبات الكنيسة اعداد جماعة من المفكرين يستطيعون مقارعة فقهاء المسلمين ومجادلتهم ببراهين من كتبهم وتعاليمهم . هذا فضلا عن اهتمامهم بتدريب ادلاء يعرفون العربية ليقوموا بخدمة الحجاج المسيحيين القادمين من مختلف الاصقاع الى الاراضي المقدسة . لذا نرى البابوات يكلفون جماعة الفرنسيسكانيين بالاهتمام بمن يغدون الى فلسطين من المسيحيين ، والدومينيكانيين بمن يقصدون سورية ومصر . وكان من الوسائل التي اعتمدها الفاتيكان في سبيل ذلك تعليم العربية واللغات الشرقية في بعض المدارس والاديرة من اسبانيا والجامعات في فرنسا وايطاليا منذ القرن الحادي عشر الميلادي . وقد ساعد وجود المطابع على تحقيق هذا الهدف وأخذ الاستشراق يسير في طريق صاعدة تحقق تقدما مستمرا لتحقيق الاهداف التي قام من أجل خدمتها .

ويعتبر البعض أن جربر دي اوراليك **Jerbert de Oraliac** الذي تبوأ منصب البابوية باسم سلفستر الثاني (٩٩٩ - ١٠٠٣) والذي هو من أصل فرنسي من طلائع المستشرقين ، فقد امر بعد أن اعتلى السدة البابوية بإنشاء مدرستين عريبتين في روما و رانس **Reims** ، كما نشر الأرقام العربية في أوربة وترجم بعض كتب الرياضيات والفلك وغير ذلك . وتبعه عدد آخر من المستشرقين كان من بينهم قسطنطين الافريقي **Constantinus Africanus** (توفي عام ١٠٨٧) واوغو دي سانتالا **Ugo Di Santalla** (حوالي ١١١٩) . واخذت الاسماء بعد ذلك تتوالى (٧) ولم يعد الاستشراق حكرا على بلد ، بل غدا له رجاله في المانيا وهولاندة وبريطانيا وايطاليا وفرنسا وروسيا وغير ذلك من دول الغرب آنذاك ، واخذت كتابات المستشرقين ومؤلفاتهم تتزايد وتتسع حتى شملت آفاقا عديدة من عوالم العرب والاسلام في المشرق والغرب على حد سواء .



ولابد لنا ونحن في هذه المرحلة من حديثنا ان نتوقف لنستعرض العوامل التي دفعت بالاستشراق في معارج التطور . وكنا قد ذكرنا أن اهتمام الاوربيين بالتراث واللغات الشرقية كان مبعثه ونقطة انطلاقه الغرض الديني بشكل رئيس . فالرد على المسلمين ومجادلتهم ، والدعوة الى المسيحية والتبشير بها بين المسلمين وغير المسلمين من شعوب آسية وافريقية الذين دخلوا او خطط لدخولهم في تبعية الدول الغربية المستعمرة ، كانت كلها من بين العوامل التي دفعت عجلة الاستشراق الى الامام . والذي يؤيد زعمنا هذا هو أن الكثيرين من الذين احترفوا الاستشراق وبرزوا في ميادينه بدأوا حياتهم العلمية بدراسة اللاهوت قبل التفرغ لميدان الدراسات الاستشراقية ، وكانهم أرادوا أن يتسلحوا بمعرفة كافية بالعقيدة المسيحية قبل الخوض في غمار الحرب المبطنة التي أرادوا شنها على خصومهم الدينيين ، وظل الكثير منهم يتولى وظائف دينية وتبشيرية وله مكانة كنسية مرموقة . ورغم محاولات بعضهم نفي هذه التهم والاعلان عن حيادهم وانهم انما يقصدون من دراساتهم وجه العلم والحقيقة ، فقد لازم التعصب الديني اكثرهم وبدا بين سطور ما يكتبون ان لم يعلنوا عنه صراحة وجهارا .

ولسنا نريد القول بأن الهدف الوحيد للاستشراق كان الدافع الديني ، ولن نستطيع أبدا أن نبعد المطامع الاستعمارية عن هذه الصورة التي نرسمها لاهداف الاستشراق ، لان الاستعمار في رأينا كان من بين العوامل الهامة التي ساعدت على تطور الاستشراق . فقد رأت الدول الاستعمارية أنه لابد لها من أجل تحقيق

أغراضها السياسية والاقتصادية في الدول العربية والإسلامية من أن تستفيد من الاستشراق لتحقيق هذه الأغراض .

ونخلص من كل ذلك إلى القول بأنه بعد قيام الحركة الاستعمارية الأوروبية في القرون الحديثة وشعور المستعمرين بأن الدراسات الاستشراقية التي قامت في الأساس لخدمة أغراض دينية يمكن الاستفادة منها في ميدان التغلغل وتثبيت النفوذ الاستعماري ، فقد قامت هذه الدول بدعم حركة الاستشراق ومدها بالعون المادي والمعنوي ورعت مؤسساتها وساهمت في إنشاء جمعياتها ومولتها بما تحتاج . وهكذا وبعد أن كانت الكنيسة راعية الاستشراق والموجهة لتحركات وأعمال رجاله ، انضمت الدولة إلى الكنيسة في هذه الرعاية وقدمت له ما يحتاج من دعم مادي ومعنوي . وليس أدل على ذلك من جهود وارن هيستنجز Warren Hastings الحاكم الإنكليزي العام للبنغال الذي أمر بعض موظفي شركة الهند الشرقية في أواخر القرن الثامن عشر بالاهتمام بدراسة لغات الهند وتاريخها وحضارتها ، ثم ما لبث أن عمد إلى تأسيس « الجمعية الآسيوية للبنغال » سنة ١٧٨٤ ، وهي أول جمعية علمية للمستشرقين ، وذلك لأن الحاكم العام كان يريد إقامة السيطرة البريطانية في الهند على أساس متين من معرفة البلاد وامكانيات استثمارها ، وعندما تأسست (الجمعية الآسيوية) في فرنسا سنة ١٨٢١ كتب القائمون عليها في نشرة الإعلان عنها أن غايتها هي قبل كل شيء « جمع الوثائق الثمينة اللازمة للأعمال الدبلوماسية في الشرق الأدنى وللمشاريع التجارية في آسية كلها ، ثم جمع المعلومات عن الصناعات الهامة مثل النسيج والخزف التي يسهل الاطلاع عليها في مؤلفات الشرقيين » (٨) . وواضح من هذا الإعلان أن أهداف الاستعمار السياسية والاقتصادية كانت وراء الأمر بتأسيس هذه الجمعية . ووثيقة تأسيس هذه الجمعية تفضح الترابط بين الهدفين الاستعماري والديني أيضا إذ أنه جاء فيها أيضا بأن الدراسات الشرقية التي سوف تعنى بها هذه الجمعية « من شأنها أن تمهد السبيل للبشرين وتفيدهم في نشر الديانة المسيحية » (٩) . ويقدم الاستعمار الفرنسي للجزائر مثالا آخر على هذه الصلة الوثيقة بين الاستعمار وتطور الدراسات الاستشراقية ، فقد اتسعت الدراسات العربية في فرنسا وتطورت ونمت بعد استيلائها على الجزائر ، وغدت فرنسا حريصة على إقامة المؤسسات المتخصصة في ميادين اللغة العربية والدراسات الشرقية وزودت هذه المؤسسات بما تحتاج وأولتها عناية تتناسب وما تعلق عليها من آمال .

وحرص الاستعمار على اشاعة ايديولوجية تهدف إلى إقامة التفريق الواضح بين الشرق والغرب ، والنص على أن هناك من حيث المبدأ والأساس فرق جوهري

بين الغرب والشرق لا في أسلوب الحياة المادية اليومية والعادات ، بل في طريقة التفكير ونوعية العقلية والتكوين الفكري . فكانت نظريات غوبينو Gobineau (١٨١٦ - ١٨٨٢) العرقية التي ضمنها كتابه « بحث حول عدم التساوي بين العروق الانسانية » Essai sur l'inégalité des Races Humaines ، وارنست رينان E. Renan (١٨٢٣ - ١٨٩٢) في كتابه « أديان الساميين » الذي يذكر فيه أن الساميين منحدرون من أصل واحد يتميز افراده بتشابه لغاتهم وعقليتهم ونظرتهم الجزئية غير المجملة الى الاشياء وتأثرهم بالفيبيات وميلهم الى السذاجة في التفكير . ويؤكد رينان أن الصفات التي تتميز بها العقلية السامية ترجع الى عوامل بيولوجية مورثة من الجنس الذي ينحدرون منه ، لذلك فهو يعتبرهم مختلفين أساسا عن الاربيين . وطبيعي أن يكون من جملة البواعث التي حدث برينان الى إطلاق مثل هذه الافتراضات العفنة عقلية استعمارية ، أرادت أن تفرض نظرية العرق السيد الذي يحق له أن يستعمر ، هذه النظرية التي طورها هتلر والنازية فيما بعد . فكان ما هو معروف من أمرها ، مما لا أرى ضرورة لتكراره . وهكذا نرى أن العلاقة وشيجة بين الاستعمار والاستشراق ، وقد أدت هذه الصلة الوشيجة الى انصراف الاستشراق للاهتمام بنوعية معينة من الموضوعات تتناسب والمرحلة التي قطعها الاستعمار في علاقاته مع البلد المستعمر ، فالدراسات في دور الغزو تختلف عنها في دور توطيد النفوذ ، كما تأخذ شكلا آخر في دور مقاومة الثورات التحررية .

وينبغي أن ننبه الى أن الكثير ممن نسميهم بالمستشرقين لم يكونوا علماء أو أساتذة جامعات أو رجال بعثات أثرية ، بل كان بينهم العديد من الجواسيس والموظفين في وزارات الخارجية ووزارات المستعمرات ودوائر الاستخبارات وغير ذلك . كما ينبغي أن نلاحظ أن دراسات المستشرقين انصرفت انصرافا تاما عن نهضة الشعوب الشرقية والاسلامية في العصر الحاضر وركزت جهدها بشكل خاص على تاريخها القديم ومعالم حضارتها وفكرها في الماضي البعيد . وهم حين يبحثون في تاريخ وحضارات وطننا العربي في القديم يقتصرون على بحث الامور التي لا تمس نواحي عزة هذه الامة ومساهماتها في حضارة العالم وتراثه ، وما كان لها من دور انساني كبير لابد من بعثه والقاء الاضواء عليه حتى تستنير الاجيال اللاحقة بأنوار الماضي فتلحق بالركب وتستعيد ما كان لها من مجد وسيادة . ويوصلنا هذا الى القول بأن أبحاث المستشرقين حول موضوع النهضة العربية الحديثة قليلة جدا ، وأقل منها أبحاثهم حول الجوانب الايجابية في تاريخ العرب والاسلام ، وأن جل اهتمامهم تركز حول الفتن والحروب الاهلية والفرق الدينية ومظاهر الفرقة والانقسام التي تظهر سلبيات هذا التاريخ ، كما اهتموا بالامور اللغوية وبالمؤثرات الخارجية التي كان لها في زعمهم تأثير في نشأة الاسلام وحضارته . فهم يحاولون

التشكيك في صفاء الاسلام وبيرون الدور الذي لعبته المسيحية واليهودية في تكوين الفكر والعقيدة الاسلامية ، ويردون الفلسفة العربية الاسلامية الى اصول يونانية أو غيرها . وكل ذلك بدعوى استعمال الاسلوب العلمي في البحث واتباع الطريقة النقدية في استقراء النصوص ، وتطبيق قواعد منهج البحث التاريخي . ولابد من الاعتراف بأنه مهما كانت نوايا المستشرقين غير صافية فإن اسلوبهم في البحث والنقد التاريخي يظل الاسلوب الذي يجدر بنا احتذاؤه في دراستنا التاريخية والحضارية . كما لابد من الاعتراف بأن جهودهم في ميادين نشر تراثنا كانت جهودا جبارة وتستحق كل تقدير ، فحتى اليوم ورغم الخطى الحثيثة التي قطعتها عملية نشر التراث العربي بأيد عربية ، فإن الكثير من الاصول مازال أفضل طبعاتها طبعات **ليدن** Leiden وباريس وسواهما من مراكز الاستشراق القديمة . كما أن الكثير مما نشره مايزال دون اعادة نظر رغم ظهور مخطوطات جديدة لم يتح للناشرين الاول الاطلاع عليها . وما قلناه عن ميدان التراث يصح بشكل اوسع بكثير على ميدان الآثار ، ففي هذا الميدان مازالت جهود البعثات الانثوية الاجنبية هي الجهود الحقيقية التي أخرجت آثارنا من ظلام القرون الى نور الحقيقة . ولن أسرد امثلة على هذه الجهود ويكفي أن أذكر بعض الاسماء التي تتضمنها القائمة الطويلة للمستكشفين والآثاريين الاجانب الذين دفع الكثير منهم حياته ثمنا لارتداد أرض الجزيرة العربية بقصد الكشف عن آثارها والتعرف على حضارتها وتاريخها . وأقدم من نعرفه من هؤلاء الرحالة هو دي فارتما L. de varthema الذي وصل الى مكة قادما من دمشق في أوائل القرن السادس عشر ، وتلاه اخرون أكثر ، ولكن أكثر الرحالة الذين تركوا لنا وصفا مسهبا لرحلاتهم ومخاطراتهم كانوا المستكشفين الذين قاموا برحلاتهم في أوائل القرن التاسع عشر ، وفي مقدمتهم المفامر الاسباني بادياي لبلخ Badia Y Leblich الذي وصل الى جدة عام (١٨٠٧) تحت اسم علي بك العباسي مدعيا انه آخر امراء البيت العباسي . وقد زار لبلخ مكة وكتب وصفا دقيقا للكعبة وطقوس الحج ، وكان أول من عين مكان مكة على خريطة العالم ، وتآلى بعد ذلك الرحالة والمستكشفون من أمثال نيبور Carsten Niebuhr (١٧٦١ - ١٧٦٤) وهاليفي Halévy (١٨٦٩) وغلانز Glaser (١٨٨٢ - ١٨٩٢) الذين زاروا آثار اليمن وقدموا للعالم الكثير من المعلومات حول تاريخها وحضارتها وقام رحالة آخرون من أمثال ولستد Wellsted (١٨٢٥) وفون فريده Von Wrede وهيرش Hirsch وبنس Bent الذي زار شواطئ بلاد العرب ومايلسز Miles الذي زار شواطئ بلاد العرب عام (١٨٦٧) موفدا من قبل شركة الهند البريطانية . هذا فضلا عن بوركهارت J. L. Burckhardt (١٨١٥) الرائد الاول للحجاز ، وبرتون Burton وسنوك هيرخرونيه Snouck Hurgonye الهولندي ، وبالغريف Palgrave (١٨٦٢ - ١٨٦٣)

وداوتي Doughty مؤلف كتاب Arabia Deserta (١٨٧٥) وبلنت Blunt (١٨٨٧) وغيرهم ممن كان لهم فضل في اكتشاف بلاد العرب . ولما اشرق القرن العشرون ازدادت الابحاث العلمية واخذت شكلا اكثر جدية وظهرت مؤلفات عن بلاد العرب تتصف بالجدية في البحث والغنى في المعلومات مثل كتاب موزل Alois Musil الذي أصدره في سبعة اجزاء ، وكتاب جوسن وسافينيكا Jaussen - Savignac بعنوان « بعثة أثرية في الجزيرة العربية » Mission Archéologique en Arabie الذي يشمل حديثا مسهبا عن آثار الحجاز وبخاصة مدائن صالح والعلا . وفي الفترة السابقة للحرب العالمية الاولى كان ديسو Dussaud يقوم بأبحاثه الاثرية في سورية وينقل النقوش ويجري دراسات أثرية وتمكن ديسو هذا ، ودينان Dunand من نقل كثير من النقوش الصفوية والشمودية والحيانية بحيث أصبح من الميسور عمل سجل جامع لها . أما في أواسط الجزيرة العربية فسيظل البحث العلمي مدينا لمبرترام توماس B. Thomas الذي اخترق الربع الخالي في شباط من عام ١٩٣١ فوجد بقايا بحيرة عند منخفض ابو بحر وآثار نباتات وحيوانات عند جبل العترا ، وكان اكتشافه هذا المنطلق الذي استند عليه وينكلر وكايتاني في بناء نظريتهما القائلة بأن الجزيرة العربية كانت أرضا خصبة في تاريخها القديم وأنها بالتالي مهد العرق السامي . ولن ننس أخيرا ان نذكر اسم هنري سان جون فيلبي Philiby الذي قام بكثير من الرحلات كانت آخرها رحلته التي قام بها بصحبة العالم البلجيكي ريكمانز شتاء عام ١٩٥١ - ١٩٥٢ ، وعادا ومعهما (١٢٠٠) نقش أكثرها ثمودية وبينها نقوش لحانية سبئية .

وكان من أهم النتائج التي ترتبت على تطور الاستشراق واتساع ميادينيه ومواضيعه ان شعر المستشرقون بضرورة التخصص ، فنشأت فروع استشراقية عديدة من أهمها فرع الدراسات الاسلامية Islamologie الذي انقسم بدوره الى فروع عدة بينها ميدان اللغة والتاريخ والعقيدة وسواها من الميادين . وظلت حياة الرسول الكريم ودعوته وتعاليمه أهم الميادين التي طرقها المستشرقون واحتلت المقام الاول بين الموضوعات التي عالجوها . وظل الاوربيون في القرون الوسطى وحتى القرن السابع عشر الميلادي يتحدثون عن الرسول الكريم حديثا تملؤه الاسطورة وتحف به ابشع صور الدجل والشعوذة . ولما بدأت الحركة الاستشراقية تتخذ لنفسها طابع العلمية والحياد ، اخذ المستشرقون يتظاهرون بالتححرر من التعصب الديني ويدعون أن هدفهم من دراسة حياة الرسول هو معرفة سيرة حياته معرفة صحيحة بعيدة عن كل تصور مسبق أو هدف غير علمي ، ورغم ما في هذا الادعاء من بعد عن الصحة ، فاننا نلاحظ أن بعض الكتاب الغربيين أخذوا منذ القرن الثامن

والدقة في الحكم عليه ، ولكن هذا الظاهر الخادع لم يمنعهم في اغلب الاحيان من طمس الحقائق أو تشويهها . وتستبين لنا هذه الحقيقة اذا ذكرنا نماذج من أعمال المستشرقين الأوائل في ميدان دراسة سيرة حياة الرسول الكريم .

فالمستشرق الفرنسي غليوم بوستل Guillaume Postel مثلاً (١٥٠٠ - ١٥٨١) الذي كان يعد من اكبر علماء عصره ويدرس العربية والعبرية واليونانية في جامعة باريس ، وكانت لديه مجموعة ضخمة من المخطوطات الشرقية ، ألف كتاباً أسماه « عن جمهورية الاتراك » De la Republique des Turques وقد ضمن القسم الاول منه وصفاً لحياة الرسول مدعياً انه استفاه من القرآن والحديث ومما جاء في كتب المسلمين لاعتقاده ، كما يقول ، بأن احسن وسيلة لمحاربة المسلمين هي محاربتهم بأسلحتهم نفسها . ثم قام في القسم الثاني من الكتاب بعرض حياة الرسول من وجهة نظره الدينية . ولخص في القسم الثالث تعاليم الدين الاسلامي محاولاً بشكل خاص ان يشير الى الامور التي اقتبسها الاسلام عن المسيحية واليهودية والعجيب في امر بوستل انه بعد هذا العداء الصارخ للاسلام اتاحت له فرصة زيارة مصر وسورية ولبنان والاستانة فازدادت معرفته بالاسلام حتى اعجب به ، ورأى انه من الممكن التوفيق بين الاسلام والمسيحية واليهودية . وقد أثارت آراؤه هذه الكنيسة فأمرت بسجنه في أحد الاديرة حيث ظل حتى مات .

ويعتبر بوستل رائداً في ميدان الرجوع الى المصادر العربية لدراسة حياة الرسول وغيرها من القضايا المتعلقة بالتاريخ واللغة العربية ، وكان من أشهر من سار على هذه السنة المستشرق الانكليزي ادوارد بوكوك الاب E. Pococke (١٦٠٤ - ١٦٩١) الذي بدأ حياته قسيساً ، ثم ما لبث ان اظهر اهتماماً واضحاً بالدراسات العربية ، فقصده مدينة حلب سنة ١٦٣٠ حيث أمضى مدة خمس سنوات اتقن خلالها اللغة العربية كتابة وخطابة على يد شيخ حلبي اسمه الشيخ فتح الله ، واقتنى مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية من بينها « الامثال » للميداني . وعاد الى اكسفورد يحمل هذه الذخيرة من المخطوطات ، كما يحمل شجرة تين ظل يتفياً ظلها . وفي سنة ١٦٣٦ عين استاذاً لكرسي اللغة العربية في جامعة اكسفورد ، وأخذ يحاضر في الاداب العربية والنحو العربي ، وكانت الحلقة الاولى من محاضراته عن اقوال الامام علي بن ابي طالب . وكانت في اكسفورد مطبعة عربية ، فاستغلها لطباعة المخطوطات العربية التي حملها معه . ثم ما لبث أن عاوده الحنين الى الشرق بعد سنة من قدومه الى اكسفورد فعاد للاستزادة من العلم والمخطوطات ولقي استاذاه وصديقه الشيخ فتح الله ، وعاد سنة ١٦٤١ الى بريطانيا ليعاود التدريس في الجامعة ونشاطه الكنسي . وبلغ من شهرته في ميدان الدراسات الشرقية أن

توافدت عليه اعداد كبيرة من طلاب البلدان الاوربية ليفيدوا من خبرته وعلمه . وقد خلف بعد وفاته مجموعة بلغت (٤٢٠) مخطوطا اقتنتها مكتبة جامعة اكسفورد (بودليان) . والمهم ان بوكوك اشرف على نشر عدد كبير من المخطوطات العربية من بينها « نظم الجواهر لابن البطريق » ، وقد ترجمه الى اللاتينية وسماه « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » . وله « المختار من تاريخ العرب » ، وهو مجتزء من تاريخ ابن العبري (بارهبراس) المسمى تاريخ مختصر الدول الذي اشرنا اليه آنفا ، كما ترجمه الى اللاتينية وذيله بدراسات في التاريخ والادب والدين والعلوم العربية . وقد اعتمد الكثيرون ممن جاؤوا بعد بوكوك على كتاب ابن العبري هذا فيما كتبوه عن الرسول والاسلام . وكان بوكوك كغيره من المستشرقين في عصره يهدف الى التبشير بالمسيحية والدفاع عنها .

وقد اعتمد مستشرقو هذه الفترة على ما وصلهم من ترجمات للقرآن الكريم ، الى جانب اعتمادهم على المصادر العربية في دراساتهم لحياة الرسول الكريم والدين الاسلامي . وكانت الحروب الصليبية وما نجم عنها من احتكاك وتحد من جهة ، والرد الحاسم على هذا التحدي من جهة اخرى ، هي نقطة البدء في حركة واسعة هدفت الى ترجمة القرآن الكريم ونشره بقصد استخدام الوسائل الفكرية المعتمدة على تعاليم الاسلام ونصوصه الاصلية في محاربة الاسلام . وكان الرائد الاول لحرارة ترجمة القرآن هو بطرس المحترم Petrus Venerabilis (١٠٩٢ - ١١٥٦) ، الذي كان يعتقد انه « لاسبيل الى مكافحة العقيدة المحمدية الا بالحجج العقلية وقوة المنطق ومظاهر الحب » (١٠) ومن اجل تحقيق هذا الهدف قرر العمل على ترجمة القرآن الى اللغة اللاتينية ، وساعده في عمله رجلان من رجال الدين المسيحي كانا يعرفان العربية . ولكن لم يتح لهذه الترجمة ان تنشر الا بعد (٤٠٠) سنة اذ قام أحد علماء اللاهوت في مدينة بال بسويسرا بطبعها سنة ١٥٤٣ . ولكن سياسة الكنيسة كانت لاتهدف الى ترجمة القرآن فحسب ، بل كان رأي البابا اينوستنت الحادي عشر انه من الافضل نشر ترجمة للقرآن مع رد عليه في وقت واحد . وعهد بهذه العملية الى راهب يرجع اصله الى سورية اسمه « المرعشي » ، ولكنه عاش في المقر البابوي بايطاليا حيث عرف باسم ايطالي محرف عن العربية هو لودوفيكو ماراتشي Ludovico Marracci (١٦١٢ - ١٧٠٠) ، الذي نشر في روما سنة ١٦٩١ كتابه « دراسة عن الاسلام » الذي جعله مقدمة لطبعته من القرآن الكريم متنا وترجمة لاتينية وتعليقات على المتن . وقد قدم لكتابه بترجمة لحياة الرسول الكريم ، يقول في تبريره لكتابتها ما يلي :

« لو أردت وصف حياة (محمد) حسب رواية كتابنا لتعرضت لسخرية

المسلمين . فان هناك اختلافا كبيرا بين ما نتناقله نحن عن (محمد) وبين ما يرويه المؤرخون المسلمون ، حتى أن القارئ لا يكاد يصدق أن الكلام في الحالتين يدور حول الشخص ذاته . لذلك سوف أتبع المؤرخين المسلمين ، ليس لأنني اعتقد بصدق كل ما يقولونه ، بل لأننا إذا أردنا مكافحة أعداء الدين لابد لنا من أن نحاربهم بأسلحتهم . أضف الى ذلك أن الكثيرين من كتابنا يذكرون أمورا عن (محمد) لا يمكن أن تثير لدى المسلمين الا السخرية ، ولا تزيدهم الا تمسكا بعقائدهم الباطلة » (١١) . وواضح من هذه المقدمة أن المرعشي لم يكن يقصد في عمله أن يصدر حكما عادلا على الرسول صلوات الله عليه .

وقد ظهر بعد ذلك اتجاه أكثر اعتدالا وعلمية في دراسة الاسلام والسيره النبوية ، ويمثله المستشرق الهولندي هادريان ريلاند Hadrian Reland (١٦٧٦ - ١٧١٨) الذي ألف كتابا عنوانه : « في الديانة الحمديّة » De Religione Mohammedica . نشر لأول مرة سنة ١٧٠٥ والكتاب عبارة عن تعريف بالعقائد الاسلامية باللغتين العربية واللاتينية ، وحاول فيه المؤلف أن يصحح بعض الآراء الشائعة عن الاسلام ، والتي هي في مجملها آراء مغلوطه . وقد اثار هذا الكتاب ضجة كبيرة واتهم المؤلف بأنه قصد من وراء كتابه الدعاية للاسلام . وغني عن القول أن هذا الاتهام غير صحيح ، ولكن التعصب الديني عند رجال الكنيسة الكاثوليكية جعلهم يضعون الكتاب في قائمة الكتب المحرمة . وتتضح المسحة العقلانية عند ريلاند في المقدمة التي يضعها لكتابه والتي يقول فيها :

« هل يعقل أن يعتنق الملايين من البشر الديانة الاسلامية لو كانت منافية للعقل وسخيفة كما يدعي المؤلفون المسيحيون ؟ ! » ثم يضيف قوله : « لنسعد المسلمين انفسهم يصفون لنا ديانتهم . ألا نرى أن التعاليم اليهودية والمسيحية قد شوّهت من قبل الوثنيين ، والتعاليم البروتستانتية من قبل الكاثوليك ، انه لا يمكن معرفة حقيقة أي ديانة بالاستناد الى أقوال خصومها . اننا جميعا بشر ، أي كائنات معرضة للخطأ ... ثم كيف يجوز أن نحاول مجادلة المسلمين دون أن نعرف عقائدهم معرفة جيدة ؟ . » ورغم ما وجه اليه من تهمة نراه لا يتراجع عن رأيه . ويقول : « فالحقيقة يجب البحث عنها مهما كانت المصاعب ، لذلك أريد في كتابي هذا وصف الديانة الحمديّة ، ليس كما تبدو لنا من خلال ضباب الجهل وخبث البشر ، بل كما تدرس حقا في مدارس المسلمين ومعابدهم ... واذا أراد الناس ، رغم كل ماقلته ، أن يتمسكوا بالخرافات السخيفة فذلك شأنهم . ان تجارب الحياة تبرهن لنا كل يوم على أن الناس ينقادون بسهولة الى الاحكام السابقة المتوارثة ، وانهم يفضلون الخداع والغش على معرفة الحقيقة » (١٢) .

ورغم ما في هذا الصوت من مسحة عقلانية كانت نغما نشازا في زحمة التعصب الديني الرهيب الذي كانت تحياه أوروبا في تلك الفترة ، فان عقلانية ريلاند لم يتح لها أن تعمر طويلا أو أن تجتذب الانصار الكثر ، وما لبثت عماوات التعصب والجهالة أن عادت لتحتل المقام الاهم في ميدان الدراسات الاستشراقية . فبعد أن شهد القرن الثامن عشر نشوء النزعة العقلانية في أوربة وقامت حركة « التنوير » التي كانت تسعى الى التحرر من سيطرة الكنيسة ، الامر الذي ادى في ميدان الدراسات الاستشراقية الى ظهور أصوات اخرى ، كالْمستشرق الانكليزي جورج سيل G. Sale (١٦٩٧ - ١٧٣٦) والمستشرق الفرنسي كلود ايتين سافاري C. E. Savary في كتابيهما عن القرآن (The Koran, le Coran) عادت موجة الكره والعداء لتطفي ، وتظهر على شكل مؤلفات لا تختلف في هدفها ومضمونها بشيء كثير عن مؤلفات القرنين السادس عشر والسابع عشر . ومن الاصوات المنصفة التي لابد من الاشارة اليها والتي ظهرت في القرن التاسع عشر ، صوت توماس كارلايل Th. Carlyle (١٧٩٥ - ١٨٨١) صاحب كتاب « عن الابطال وعبادة الابطال، والبطولي في التاريخ » On Heroes, Hero-Worship and the Heroic in History ، London. ١٨٤٩ والذي جمع فيه بعض محاضراته ، ومنها محاضراته عن « الرسول محمد » والتي يقول فيها ما معناه انه من العار على الانسان المتمدن أن يصفى الى الاقوال التي تدعي أن الاسلام كذب وأن محمدا خادع ومزور . ويقرر أن الرسالة التي حملها ذلك الرسول مازالت النور المضيء لاثني عشر قرنا ويؤمن بها مائتا مليون من الناس خلقهم الله الذي خلقنا . ويخاطب بني قومه قائلا : « اكان احدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر اكذوبة وخدعة ؟ أما انا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدا . » ويحلل كارلايل بعد ذلك شخصية الرسول ويكشف عن نواحي عبقريته ، وينتهي الى القول بأنه صلوات الله عليه كان مخلصا اشد الاخلاص في دعوته ، صادقا في عقيدته لا يرقى الى صدقه شك أو ريبة . وقد ترك كلام كارلايل أثرا عميقا في الرأي العام الاوربي في القرن التاسع عشر . وكانت بعد كارلايل عشرات الاسماء من الذين احترفوا الاستشراق وعملوا في ميادينه المتعددة ، مما لا اراني بحاجة للتذكير بها . وسأتوقف ، وقد أطلت ، عند مثل واحد من المستشرقين المحدثين وهو المستشرق هنري لامنس Henri Lammens الذي يستحق في نظري وقفة غير قصيرة نحل فيها أعماله ومواقفه ونضرب من خلالها المثل على نوعية من المستشرقين جاءت الى العروبة والاسلام والتاريخ العربي الاسلامي وفي يدها خنجر مسموم تحاول تسديده الى صدر هذه الامة لتطعننا في أعز مقدساتها ، ولتشوه اروع فترة من فترات تاريخها وهي فترة خلافة بني أمية . وعندي أن أعمال لامنس وكتاباته وآراءه تمثل

الاعماق الحقيقية والاهداف البعيدة المدى لحركة الاستشراق ، كما تمثل التطورات المرحلية التي كانت تدخل على هذه الحركة لتساير أهداف الاستعمار الغربي في مرحلة معينة وفي ظرف تقتضي طبيعة التحرك الاستعماري فيه بث مفاهيم من نوعية محددة لتساير الاهداف المرحلية للحركة الاستعمارية . وفي هذا ايضاح مهم للفكرة التي حاولت أن اشرح من خلالها الترابط العضوي بين حركة الاستشراق من جهة والاستعمار الذي ورث أهداف الحركة الصليبية الى جانب اطماع الدول المستعمرة في الميادين السياسية والاقتصادية والاستراتيجية من جهة اخرى .

ولد هنري لامنس في أول تموز من عام ١٨٦٢ في مدينة Ghent في بلجيكا من أسرة فلمنيكية Flemish تدين بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي . وفي الخامسة عشرة من عمره غادر بلجيكا لينضم الى الرهبنة اليسوعية في بيروت ، وأقام في تلك المدينة التي غدت موطنه الثاني ما تبقى له من عمر . وقد امضى السنة الاولى من اقامته في لبنان في الكلية اليسوعية في بيروت ، ثم انتقل بعد ذلك الى دير غفير في جبل لبنان حيث بدأ حياة الرهبنة « كمبتدئ » Novice ، وذلك في تموز من عام ١٨٧٨ . وقد مكنته اقامته في لبنان من تعلم اللغة العربية حتى اجادها اجادة تامة ، كما تعلم اللغة السريانية ، هذا فضلا عن معرفته باليونانية واللاتينية .

ولما كانت سنة ١٨٨٦ كلف بتدريس اللغة العربية في كلية بيروت اليسوعية وما لبث أن ألف كتابا في تعليم العربية . أما أول مؤلفاته التي يمكن أن تدخل في ميدان الاستشراق فكان كتابه « كتاب الفرائد في الفروق » الذي ألفه سنة ١٨٨٩ ، وكان عبارة عن قاموس يحتوي على ١٦٣٩ مادة انتقاها مما جاء عند اللغويين وأصحاب المعاجم من مصطلحات . ثم ما لبث في عام ١٨٩١ أن ترك مهنة التعليم وكرس السنوات الست التالية من حياته للدراسة والسفر . وقد زار خلال هذه الفترة بريطانيا وبلجيكا والنمسا ومصر ، واكتسب خلالها معرفة جيدة باللغتين الانكليزية والالمانية ، فضلا عن الفرنسية والاطيالية اللتين كان يتقنهما من قبل .

وفي الفترة نفسها ، ظل لمدة عام يحرق جريدة « البشير » ، وهي جريدة يسوعية كانت تصدر في بيروت . وبعد أن أنهى اسفاره سنة ١٨٩٧ أوكلت اليه ادارة الكلية اليسوعية ، فظل في هذا المنصب ثلاثة أعوام ، ثم ما لبث أن عاد ليرأس تحرير جريدة « البشير » هذه ، وذلك سنة ١٩٠٠ . وفي سنة ١٩٠٣ عاد يزاول عمله الاكاديمي في الكلية اليسوعية ، فكان يدرس مادتي التاريخ والجغرافية في تلك الكلية .

وحين أسست مدرسة الدراسات الشرقية في كلية بيروت اليسوعية عام ١٩٠٧ ، بدأ لامنس حياته كمستشرق محترف ، إذ أنه عين استاذاً في تلك المدرسة ، فتفرغ كلية للدراسة والبحث . وقد ظهرت أبحاثه في موضوع « السيرة النبوية » خلال فترة السنوات السبع التي أعقبت تسلمه منصب الاستاذية . وكان بعد ذلك أن وقع لبنان وسورية في ظل الانتداب الفرنسي بعد الحرب العالمية الاولى ، فاتخذ من لامنس رأساً من رؤوس صنائعه ، وداعية لسياسته الاستعمارية في الشرق قاطبة . حتى أنه كتب بناء على طلب المفوض السامي الفرنسي الجنرال غورو كتاباً بعنوان « سورية La Syrie » ضمن دعاية سافرة لاهداف وآراء الاستعمار الفرنسي ، من خلال عرضه لمادة علمية المظهر والاسلوب . وقد محضته السلطة الفرنسية ثقة مطلقة ، فغدا من ذوي النفوذ القوي في لبنان ، وتدخل بشكل سافر في السياسة اللبنانية عن طريق الثقة المطلقة التي كانت توليه اياها السلطة الفرنسية من جهة ، وعن طريق طلابه القدامى الذين كانوا يعتبرون من الواجهة اللبنانية الهامة التي تحتل مركز الصدارة في الادارة والسياسة من جهة اخرى ، وحين توفي الاب لويس شيخو عام ١٩٢٧ غدا لامنس رئيس تحرير مجلة « المشرق » التي كانت تعتبر من المجلات العلمية المتخصصة آنذاك ، وفي هذه المجلة نشر لامنس العديد من مقالاته وابحائه بعد أن ترجمت الى اللغة العربية ، وتابع النشر في هذه المجلة بقية سنوات حياته . وفي ٢٣ نيسان عام ١٩٣٧ توفي لامنس بعد أن أصيب بشلل اقعده أول الامر ثم مال بث أن اودى تحياته .

هذه خلاصة سريعة للمعالم البارزة في حياة هنري لامنس ، المستشرق الذي يعتبر انتاجه ، كما اسلفنا ، مثلاً حياً على أهداف ومسار حركة الاستشراق في مطلع هذا القرن . كما أن اسلوبه في العرض وطريقته في استعمال المصادر الاولى تمثل المنطلقات المنحيزة البعيدة عن كل حياد ودقة وأمانة التي هي الأساس في كل بحث علمي . فقد كان لامنس كاثوليكيًا متعصباً لكاثوليكيته . ويحاول البعض ان يضيف الى هذا أنه كان يحب « سورية » حباً شديداً وأن الكثير من آرائه المعادية للإسلام ، كانت صدى لهذا الحب ، لأنه كان يعتقد أن اسلام سورية كان سبباً في تخلفها وتخليها عن الرسالة الحضارية والانسانية التي كان من الممكن أن تؤديها لو أنها لم تقع تحت قبضة العرب المسلمين ، أو لو أن الاسلام لم يعرف طريقه اليها . ويدللون على هذه الفكرة بالقول ان لامنس درس تاريخ وجغرافية سورية ، البلد الذي آواه صبياً ومنحه شباباً وكهولة وشيخوخة حافلة بالامجاد العلمية والمكانة الاجتماعية والسياسية المرموقة . ويقولون أيضاً أن حبه لسورية ، كان لا يعده إلا بغضه للإسلام . وأود أن اتوقف عند اعترافهم ببغضه للإسلام هذا ، لأقول أن حبه المزعوم لسورية ، لم يكن في الحقيقة إلا انعكاساً لما كان يحمله من حقد

واكراهية للعرب والاسلام وانه انما اختبأ وراء « الحب » الذي بشرت به النصرانية لينفُس عن سموم الحقد الذي كان يأكل قلبه ويسد دون بصيرته أبواب العقلانية والنزاهة اللتين يقتضيهما كل عمل علمي . وأول ما يظهر هذا الحقد ، في كتابه « سورية » الذي حاول أن يبرر فيه الانتداب الفرنسي على سورية وأن يثبت أن هذا الانتداب ما هو الا امتداد لرسالة التمدن التي تحملها فرنسا الى هذا الجزء من وطننا العربي . يتناول لامنس في هذا الكتاب تاريخ سورية منذ الفتح العربي لها وحتى وقوعها في ظل الانتداب الفرنسي ، ويقدم له بمقدمة سريعة جدا تتناول تاريخ هذا القطر في العصور القديمة . ويذكر الدكتور زكي محمد حسن أن لامنس كتب كتابا عن سيرة حياة الرسول الكريم ، ولكن هذا الكتاب لم ينشر . وفي رأي الدكتور حسن أن البابا هو الذي أوقف نشر هذا الكتاب (١٣) . وغير خاف أن ما ورد في الكتاب من تجريح في شخص الرسول الامين هو الذي دعا البابا الى الامر بايقاف نشره لتخوفه مما قد يترتب على ظهور كتاب من هذا النوع من نتائج وخيمة ، أقل ما توصف بها هو أنها لن تكون في صالح الاستعمار الغربي أو الكرسي البابوي . وقد كان المنطلق الذي انطلقت منه كتابات لامنس ، والفكرة التي سادت جميع أعماله هو ايمانه بأن الاسلام كان حادثا تاريخيا بائسا ، وكارثة اصببت بها سورية فشلتها وأخرت تقدمها . وفي كتابه « سورية » شرح واف لايمانه بالامة السورية ومحاولة لاثبات فكرة الكيان السوري ، ورغم أن لامنس لم يكن اول من دعا الى هذه الفكرة ، الا أنه هو الذي حاول أن يطور هذا المفهوم وأن يقدم له البراهين والادلة التي تصطبغ بصباغ من العلمية الزائفة ليقيم أوده ويعطيه النفس المصطنع الذي لن يساعده على البقاء .

وكان من رأي لامنس أن سورية بعد أن حلت بها « كارثة » الاسلام كان عليها أن تتقبلها على « مرارتها » وأن تحاول التقليل من ثقل وطأتها وأن تحافظ على شخصيتها السابقة بالابقاء على لبنان كموطن مسيحي وكملاجاً للمسيحية السورية التي نكبت بالتسلط الاسلامي ، وهذا ما يسميه لامنس L'Asile du Liban وكان حليف سورية في « محنتها » القاسية هذه اوربة اللاتينية التي فجرت الحروب الصليبية ، فكانت هذه الحروب ، في رأي لامنس ، متنفساً مؤقتاً لسورية مما أصابها بعد أن وقعت فريسة حكم المسلمين . وينتهي به هذا المنطق المشوه الى القول بأن الانتداب الفرنسي على سورية هو الوسيلة الرئيسية لاعادة الوحدة والسيادة الى « الامة السورية » التي يصفها :

«Nation Melkite, nation Maronite Cette terminologie captieuse ne devrait pas survivre au souvenir de la domination turque.»

وواضح من كل ما تقدم أن ايمانه بأمة سورية أمر لم يبن على أي اساس من حقيقة علمية ، وأنه لم يكن سوى وسيلة فيها كل الاصطناع والزيف والكذب لتبرير مواقفه المتعصبة من جهة ، ولإيجاد ما ظنه وسيلة لتسويق الانتداب الفرنسي على هذا القطر من جهة أخرى .

وإذا تركنا قضية ايمانه « بالامة السورية » المزعومة جانباً ، وانتقلنا الى القضايا التاريخية التي يوليها اهتمامه ويصرف لها جهده ، لوجدنا أن لامنس المؤرخ قد شغله أمران أساسيان هما : شخصية محمد ، ونبوته ، اللذان كان يعتبرهما المشكلة الرئيسية في التاريخ العربي . وهناك قضايا لا بد في رأيه من البدء بها : كيف وجد الاسلام ؟ وما هي الظروف التي جعلت محمد يعتقد بأنه نبي ؟ ومن أين جاء بالفكر والمعتقدات التي بشر بها ودعاها الاسلام ؟ وإذا تفحصنا هذه القضايا والتساؤلات لوجدنا أنها كانت دوماً القضايا والتساؤلات التي شغلت بال المستشرقين منذ أن ولد الاستشراق وغدا حركة لها اهدافها وطرائقها في العمل والتفكير ، لاسيما اذا تذكرنا الرابطة الوثيقة التي تربط الاستشراق بحركة الاستعمار عامة . ولامنس كما نعلم ، هو مستشرق وممثل للاستعمار الغربي في آن واحد ، وكان محمد بالنسبة اليه مشكلة تاريخية تعنيه كمؤرخ ، ومشكلة قومية تعنيه كمستعمر . ولن ينسينا كل ذلك القول بأن لامنس المؤرخ كان يتمتع بكفاءة نادرة ومهارة واسعة في معالجة الامور التاريخية ، ولكن الاثر الاستعماري في شخصيته أعماه في أغلب الاحيان فانقلب الى انسان لا يهمه افتراس الحقيقة العلمية والافتراء على المصادر ليصل الى ما كان في رأيه ، كمستعمر ، سبيلاً لتحقيق اهدافه واثبات آرائه .

ويظهر هذا الذي ندعيه هنا اذا ما تفحصنا كتابات لامنس في موضوع السيرة وأسلوبه في نقد ماجاء في كتب سيرة الرسول الكريم . ويحاول الدكتور كمال صليبي(١٥) أن يوجد رابطة بين أسلوب لامنس في دراسة السيرة واسلوب المستشرق جولدزيهر Goldziher في دراسة الحديث الذي يشك في صحة الكثير من الاحاديث في كتابه « دراسات محمدية » Muhammedanische Studien ويحاول البرهنة على وضعها مبرراً ذلك بظروف حكم الخلافتين الاموية والعباسية . واهتمام العباسيين بوضع الاحاديث التي تؤيد احقيتهم في الحكم وقيام الفئات السياسية والدينية المختلفة بتزوير الاحاديث لتستمد السند لأرائها وأهدافها . وعندنا أن هذه الرابطة موجودة بين لامنس وجولدزيهر بسبب اتساق الهدف بين الاثنين ، وحرص كليهما على تهديم العمد الاساسية التي يقوم عليها التراث العربي الاسلامي الخالد ومن بينها الحديث النبوي . وكما اقتبس لامنس من

جولدزبير اسلوبه في تجريح الحديث والتشكيك به ، اقتبس من سنوك هيرخرونيه اسفه لعدم توفر طبعة نقدية Edition Critique للقرآن الكريم تعينه في دراسة حياة الرسول ، ونراه يقول (١٦) :

« Dans L'état actuel de nos Connaissances, les innombrables allusions historiques du Qoran nous échappent en grande partie. Nous attendons toujours une édition critique, et la chronologie du texte demeure une question ouverte. »

ويؤكد لامنس في كتابه « القرآن والحديث » Qoran et Tradition أن كتب السيرة النبوية ، وكتب من سبقه من المستشرقين عن حياة الرسول تعتمد في الغالب على الحديث ، في حين أنه يرى أن القرآن الكريم وحده هو المصدر الوحيد الذي يمكن أن يعتمد عليه لمعرفة حياة الرسول ونبوته ، وذلك لما دخل الحديث من وضع ودس وتحريف . ويبدو زعم لامنس هذا وكأنه دفاع عن الحقيقة العلمية التي يتوخاها باحث نزيه رائده الحقيقة العلمية الصافية ، ولكن اذا تجاوزنا هذه القشرة الزائفة ، وغصنا في أعماق كتابات لامنس في موضوع السيرة لوجدنا أن النتائج التي يتوصل إليها لا تتفق وهذا الحياد والعلمية التي يزعم . فقد كان لمكوناته الاستعمارية الأثر الحاسم في استعمال الأسلوب النقدي الزائف : فهو يصول ويجول في ميادين النقد ويسلط كل سهام التشكيك والتجريح حين يكون ما بين يديه من مادة في جانب الرسول الكريم وصدق رسالته ، وينسى أكل ذلك ويجافيه كل التزام بالطريقة النقدية حين يكون في الخبر دسياسة أو فرية تحط من قدر الاسلام ورسوله العظيم . وينطبق هذا الموقف على ما في المصادر من أخبار تتعلق بعلي والعباس وسواهما من آل الرسول . فهو نقاد عنيف لكل ما يرد حولما من أخبار ترفع من مكانتهما ، ولكنه يقبل أي شيء يرفع من مكانة بني أمية ، مهما كان الخبر مضعفا ومهما كان رواته مشكوكا في عدالتهم وضبطهم . وحجته في ذلك أنه لا يستطيع قبول فكرة أن كتاب السيرة من المسلمين قد كتبوا عن الرسول شيئا يشينه ، ولذلك فكل ما كتبوه لا بد صحيح . وغير خاف ما في هذه الحجة من مجافاة للمنطق والواقع التاريخي الذي يثبت بما لا يقبل الشك ما دخل على أخبار السيرة من دس وتشويه بتأثير العناصر الشعوبية والفرق الدينية الهدامة التي دخلت الاسلام لتعمل فيه يد التخريب والتشويه . وجتى في الامور المتعارف عليها والتي اجمع رأي كل كتاب السيرة والتاريخ على صدقها ، نجد لامنس يحاول الغمز منها والنيل من اهميتها ، اذا كان فيها ما يرفع من مكانة الرسول بين قومه وحتى قبل اسلامه . ان صفة « الأمين » التي تعارف الناس على وصف محمد بن عبد الله بها قبل نزول الاسلام على قلبه هي من الامور التي تسوء لامنس وتجعله يعلق عليها بقوله (١٧) :

« A nous, hommes du vingtième siècle, un *amin* quoraisite paraîtrait peut-être un coquin, dans notre civilisation, deux mille ans de christianisme et de philosophie ont précisé, offiné jusqu'à l'extrême, le concept de la loyauté humaine... La loyauté existe ou n'existe pas, mais elle ne peut se combiner avec une dose, même infinitésimale, de duplicité, de vues intéressées, Jamais les Arabes ne haussèrent jusque-là.

وكان لامنس يصدر عن فكرة مسبقة في موضوع « السيرة » ، تلخص في الشك بصدق رسالة محمد بن عبد الله ، فهو لهذا يشوه النصوص ويحملها ما لا تطبق ويقتنص منها نفا يستغلها استغلالا لا ينطبق مع منطق علمي أو أمانة في النقل (على طريقة « لا تقربوا الصلاة » .. دون « وانتم سكارى ») . ويتجلى هذا الموقف في كتابه Mahomet, fut-il sincère الذي حشاه بالدس والافتراء على الرسول الكريم ، وحاول من خلاله أن يشكك في كل المراكز الأساسية والمعالم الرئيسية لحياته صلوات الله عليه . فقضية تحثه وانقطاعه للتأمل في غار حراء قبل أن يتنزل الوحي على قلبه قضية كاذبة في رأي لامنس . والعجيب في الأمر أن رفضه لهذه الواقعة التي لا يرقى إليها شك أو ريبة مبني على المناقشة التافهة التالية :

« Rien ne garantit l'authenticité de cette retraite. Elle Cadre mal avec l'horreur de Mahomet pour la solitude, avec sa repugnance notoire pour l'ascétisme. Nous la croyons plutôt calquée sur celles de Moïse au Sinai, du Christ ou désert avant sa vie publique. Les montagnes sacrées abondaient aux alentours de la Mecque. En y plaçant la retraite du Maître, la tradition a essayé de leur conférer un caractère de sainteté islamique... Nous nous croyons donc autorisés à rayer le Mont Hira de l'histoire de la première vocation. » (١٨)

وفي كتابه « فاطمة ، وبنات محمد » Fatima et les filles de Mahomet يقدم لنا لامنس مثالا آخر على هذه الطريقة في استعمال المادة الموجودة في المصادر ، وعلى الاحكام المسبقة التي يتبناها ويحاول أن يسخر النصوص للبرهنة عليها ، ولو اضطره ذلك الى تشويه النصوص الاصلية أو الافتراء عليها . ففي هذا الكتاب يحاول لامنس أن يظهر ان فاطمة الزهراء لم تكن ابنة الرسول المفضلة ، وأنه صلوات الله عليه ، لم يكن يرغب أن يخلفه في حكم امة الاسلام أحد من اعقابها . لذا نراه في كتابه هذا يخضع الاحاديث النبوية التي تتعلق بعلي وفاطمة والحسن

والحسين الى اشد انواع النقد والتجريح والتشكيك . ويخرج بعد هذه العملية التي تتسم بالمبالغة الشديدة بنتيجة واحدة هي أن فاطمة ، رضوان الله عليها كانت لا تتمتع بحب أبيها وأنه كان لا يهتم برفاها أو تجنبها المشاق . وأن زوجها عليا رضي الله عنه لم يكن على مستوى رفيع من الذكاء والفطنة ، وأن الرسول الكريم كان يشك بكفائه ومقدرته . ومن العجيب أن لامنس الذي نراه يصوب سهامها جارحة من النقد والتجريح الى كل حديث أو خبر يرفع من مكانة علي وآله ، يقبل أكثر الاحاديث والاخبار ضعفا من حيث المتن والسند لمجرد أنها تطعن في فاطمة وزوجها وأولادها . وغير خاف أن هدف لامنس من كل ذلك اسقاط حق آل البيت في الحكم ودعم شرعية الحكم الاموي وحق آل أمية في رئاسة المسلمين . ويتضح هذا الموقف بشكل أدق في كتابه « دراسات عن حكم الخليفة الاموي ، معاوية الاول » Etudes sur le règne du calife omaiyade, Mo'awia 1^{er} الذي يصفى فيه كل الفضائل والامجاد على البيت الاموي بشكل عام ، ومعاوية بوجه خاص الذي هو بالنسبة اليه خير حاكم وأفضل رجل دولة عرفه العرب .

ورسالة محمد بن عبد الله بالنسبة للامنس هي محاولة اصلاحية ، ليس فيها أية بذرة من بذور النبوة ، وهذه المحاولة كانت جزءا من صيحات الإصلاح التي كانت تتردد في الاجواء المكية آنذاك استغلها محمد ليدعي نبوة ليس له فيها أي نصيب (١٩) :

« La mission, d'abors entrevue par Mahomet, se borne à une réforme mi-sociale, mi-religieuse des institutions mecquoises; ou, pour parler plus exactement, Mahomet ne separa jamais le sacré du profane: dogme, stipulations relatives aux hertages, aux testaments, tout sera par lui placé sur le meme pied. »

ولا يقبل لامنس ما يدعيه نولدكه (٢٠) Noeldeke من أن الرسول كان مصابا بالصرع Epilepsie. وأن المظاهر الخارجية للوحي كانت نوبات صرع واضحة ، بل يعتقد أن محمدا كان يرى ما يدعوه « وحيا » في نومه ، حتى أنه كان يسميه بالـ *Le grand dormeur* . وأن وحيه نابع من داخله وليس تنزيلا من عند الله . ويتابع هذه النظرية التي يحاول فيها اظهار الرسول الكريم بمظهر المصلح الاجتماعي ورجل السياسة فيقول أن العنصر الروحي الذي تستر به محمد بن عبد الله ابان الفترة المكية من حياته أخذ يزول بالتدريج مذ غدا الاسلام قوة سياسية بعد الهجرة الى المدينة ، حيث صار محمد رجل دولة وسياسة ، وانتهى الجانب الروحي من

حياته أو تضاعل الى حد كبير بعد النجاحات السياسية والعسكرية التي حققها في المدينة (٢١) .

واذا تركنا هذا الجانب المتعلق بسيرة الرسول الكريم من دراسات لامنس وانتقلنا الى الميدان الاخر من الدراسات الاسلامية التي اولاهها عنايته ، ألا وهو خلافة بني أمية ، لوجدنا أن هناك ترابطا وثيقا بين اهتمام هذا المستشرق ببني أمية ومحاولته رفع شأنهم ، وبين عدائه للرسول الكريم والاسلام عامة . فالأمويون عنده هم أحفاد أبي سفيان الذي حمل لواء المعارضة في وجه الاسلام ، وقاد الجيوش لحربه ، وفي هذا مايكفي لامنس لتمجيدهم ولربط حكمهم الذي قام في الشام وعلى أرض سورية بما يكنه من حب مزعوم لسورية ، كما أشرنا آنفا . فخلافة معاوية عنده نصر معنوي « للامة السورية » على الاسلام كقوة قهرت سورية وأخرت تقدمها ومنعتها من أن تلعب الدور الحضاري الكبير الذي كان مقدرا لها أن تلعبه لو لم تصب « بكارثة » الفتح الاسلامي لها . وأهم الخدمات التي قدمها عمر بن الخطاب الى سورية هو أنه ولي معاوية بن أبي سفيان أميرا عليها بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان ، وان معاوية الذي اعتمد القبائل السورية في حكمه كان يعيد صرح السيادة السورية السابقة ، لان هذه القبائل هي بقايا الفساسنة النصارى وحلفائهم . وزواج معاوية من ميسون التي ولدت له ولي عهده يزيد ، هو مظهر آخر من فضائل معاوية . فميسون سورية ربت ابنها وزودته بزاد ثقافي سوري جعل منه انسانا يمتلك صفات لا تتوفر الا فيمن اتبح له هذه الخؤولة والثقافة السورية التي توفرت له .

وهذا الالحاق على الانتماء السوري ، يقوم عند لامنس على أساسين مهمين هما : وحدة الأرض ، ووحدة الجنس . فسورية عنده أرض واضحة الحدود تحيط بها معالم طبيعية مميزة هي : البحر وجبال طوروس Taurus والصحراء العربية . أما السوريون فهم شعب يجمعه تجانس رائع وحيوية جذيرة بكل تقدير . وقد أراد لامنس حين ألف كتابه عن « سورية » La Syrie لا أن يقدم لنا وصفا لتاريخ وجغرافية هذا البلد ، بل أن يظهر من خلال سرده لاهداث هذا التاريخ أن هناك جنسية سورية متميزة ليس لها ما يربطها بالعرب والعروبة . وفي هذا ، كما هو واضح ، اتساق تام مع هدفه الاصلي ، ألا وهو اعمال معول الهدم والتخريب في جسد الامة العربية ككيان موحد متماسك من جهة ، وفي الاسلام كدين ومادة حضارة وموضع فخار لهذه الامة من جهة اخرى . والاستشراق أساسا لم يخرج في اكثر الاحيان عن هذين الهدفين كما بينا خلال هذا الحديث .

وبعد فلست أريد أن أنهي هذا الحديث دون كلمة انصاف يقتضيها واجب الامانة العلمية ، وتحقيق مبدأ اعطاء كل صاحب حق حقه . قد يتراءى مما قدمته من ملاحظات عن الاستشراق وسيرة بعض من رجالاته أن الاستشراق كان حركة شريرة لم تقدم لتاريخنا ومقدساتنا اية خدمة أو نفع ، وهذا ما لست أريد قوله . فالاستشراق عندي ، حراكه كان لها من الاهداف المعادية للعروبة والاسلام ما حاولت شرحه في الصفحات السابقة ، ولكنه يظل مساهمة لا يمكن تجاهل أهميتها أو التفاضي عما كان لها من مردود واضح الاثر في اغناء الدراسات العربية والاسلامية في مختلف حقولها وآفاقها .

واذا كان المستشرقون قد نظروا في مناسبات كثيرة الى الاسلام ونبيه بمنظار الشك والريبة ، ورفعوا في وجهيهما اصابع الاتهام والتحيز ، فانهم اعطوا هذه الدراسات اسلوبا ومنهجاً كان ينقص الكثيرين من دارسينا . وكان لبعضهم فضل المساهمة الجادة في نشر تراثنا وتقديم الدراسات الجادة حول الكثير من قضايا تاريخنا ولغتنا وبعض جوانب حضارتنا . ان الكثيرين ممن يتصدون اليوم منا لدراسة التاريخ العربي الاسلامي ، قد درسوا على مستشرقين ، وتلقوا تدريبهم العلمي على ايديهم ، وان نظرات الشك والريبة التي تطل من بين هذه السطود لا تعني أنني اجهل أهمية الدراسات الاستشراقية ، ولا تقتضي رفض كل ما جاء به المستشرقون من أبحاث ودراسات ، فبينها الكثير مما يستحق اكل ثناء وتقدير . ولكنني سأظل اردد فكرة اومن بها وهي أن التاريخ العربي الاسلامي يستحق منا نحن الذين نتشرف بالانتماء الى صناعيه عناية فيها علمية الاسلوب الذي انتهجه بعض المستشرقين ، واخلاص المؤمن بهذه الامة الذي لم يتوفر لغالبية المستشرقين .

واذا كان النقاش اليوم حاداً بين ادوارد سعيد صاحب كتاب «الاستشراق» وبين معارضيه ، وعلى رأسهم المستشرق المعروف برنارد لويس ، فاني لم أرد لهذا البحث أن يدخل في متاهة هذا النقاش ، ولكنني مؤمن أن زمن الاستشراق بالمعنى الذي شرحته في مقدمة البحث قد ولى ، وأن المؤتمر الاخير للمستشرقين الذي عقد في باريس صيف عام ١٩٧٩ ، وكان لي حظ المشاركة فيه ، قد دفن حركة الاستشراق الى الابد ، واستعاض عن مؤتمرات الاستشراق المعروفة بمؤتمرات أسماها رسمياً باسم : « المؤتمر الدولي للعلوم الانسانية في آسية وشمال افريقية » ، وسيعقد المؤتمر الحادي والثلاثون منها صيف العام القادم في اليابان .

وبعد ، فان كل هذا يدعونا الى القول بأن الكثير من المكتوب من تاريخنا بحاجة الى عودة جادة نتخلص فيها من نهج السلفيين الذين نظروا الى احداث هذا

التاريخ نظرة تعتمد على سرد وقائعه سردا وصفا تتالى فيه السنوات وتتشابك الحوادث وتبرز فيه أسماء العظماء من رجال الحكم والحرب دون تفحص لما يقبل وما لا يقبل ، ودون الالتفات للتيارات الكبرى التي سيرت هذا التاريخ وصنعت أحداثه على الشكل الذي ظهرت فيه ، ودون اعارة اية التفاتة لجماهير هذه الامة في مساهماتها السياسية وفي حياتها اليومية وفي اقتصادها وفكرها ومواقفها من أمور دينها ودنياها . ان أساليب النقد العلمي ومناهج البحث التاريخي التي تنقص الكثير مما نكتب لا بد وأن تحتل مكان الصدارة في انتاجنا التاريخي الجديد ، وفي نظرتنا الى احداث تاريخ أمتنا . وهنا نجد في الاسلوب الذي تتبعه كثرة من المستشرقين المحدثين مثلاً يحتذى لا غنى لنا عنه في نهضتنا المأمولة في ميدان الكتابة التاريخية . ولست أريد أن أنكر على جميع مؤرخينا المحدثين فضلهم في هذا الميدان ، فبينهم من قطع شوطا محمودا في هذا الطريق ، ولكنني مازلت مؤمنا أنه ينقصنا الكثير ولا بد أن تلجأ جامعاتنا التي يقوم طلابها بكتابة أبحاث لنيل شهادات جامعية عليا في مواضيع تاريخنا الى التشدد في استعمال هذا الاسلوب كي نخرج جيلا من المؤرخين يكونون عدتنا لتحقيق هذا الهدف .



الحواشي :

(١) يمكننا ان نذكر كمثال على المعلومات التي يوردها ثيوفانس عما كان يجري في دولة الاسلام في الفترة التي يؤرخ لها ، ما ينقله لنا عن موقعة صفين التي جرت بين علي ومعاوية كما هو معلوم . يقول ثيوفانس : « ان من كان مع معاوية تغلبوا واستولوا على الماء ، ومن كان مع علي تركوا القتال وفروا بسبب العطش . على ان معاوية لم يكن يريد أن يقاتل ، لكنه احرز النصر بدون مشقة . » . وهذا ، كما هو معلوم ، يخالف المعلومات المتعارف عليها والتي تقرر أن الذي كان يسيطر على شريعة الماء أول الامر هو معاوية ، ولكن عليا وجيشه قاتلوا اهل الشام واستولوا على الماء وسحقوا لاهل الشام بأن يستقوا . غير خاف ان مصدر معلومات ثيوفانس هذه هو اهل الشام ، كما انه الف موسوعته قبل الطبري بقرن من الزمن (توفي الطبري سنة ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) ، وبعد ملائزيد بأكثر من ستين سنة على قيام دولة بني العباس ، فهو اذن اقرب الى زمن الحادث من الطبري . من اجل التوسع في هذا الموضوع ، انظر كتابنا ، خلافة بني أمية ، ط . دمشق ١٩٧٢ ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) السيد الباز العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٣٢ .

(٣) من أجل أزمة الايقونات ، انظر كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ط . دمشق ١٩٧٠ ، ص ١٤٧ وما بعدها .

(٤) انظر نص هذا المنشور في ترجمة شكيب ارسلان لكتاب رينو عن غزوات العرب في غاليا وايطاليا ، ص ٢٣ . وقد وجد نص هذا المنشور في دير لوريان وطبع في لشبونة عام ١٦٠٩ .

(٥) كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد الرابعون ، الجزء الاول ، يناير ١٩٦٥ ، ص ١٦٥ .

(٦) كامل عياد ، ص ١٦٧ .

(٧) من أجل أسماء المستشرقين الاوائل ، انظر ، نجيب العقيقي ، المستشرقون ، ثلاثة أجزاء ، طبع القاهرة ١٩٦٤ ، ج ١ ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٨) كامل عياد ، المصدر المذكور ، ص ٥٨٣ .

(٩) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٠) انظر ، كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج ٢ ، المجلد ٤٣ ، ص ٥٧٦ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٥٧٨ - ٥٧٩ .

(١٢) كامل عياد ، صفحات من تاريخ الاستشراق ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٣ ، المجلد ٤٣ ، ص ٥٧٩ - ٥٨٠ .

ذ . نبيه عاقل

- (١٢) انظر مقال الدكتور زكي محمد حسن في ، مجلة المقتطف ، ديسمبر ١٩٢٧ ص ٥٥٥ - ٥٦١ .
- La Syrie, I, P. 5. (١٤)
- (١٥) بحث مقدم من الدكتور صليبي الى حلقة دراسية عقدت في جامعة لندن حول موضوع :
((الكتابات التاريخية عن الشرق الادنى والاسط .))
- Qoran et Tradition ..., P. 7. (١٦)
- Mahmet, fut-il sincère, P. 4. (١٧)
- Mahomet, fut-il sincère, P. 1. (١٨)
- Mahomet, fut-il sincère?, P. 44 (١٩)
- Noeldeke, Sketches from Eastern History, ed. London, 1892, P. 25 (٢٠)
- Mahomet, fut-il sincère ?, P. 24 (٢١)

